آثار الشيخ العلامة
عبد الرحمن بن يحيى المعلمي
(٢٣)



مطبوعات المجمع

الخطب والوصايا

تأليف
الشيخ العلامة عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني
١٣١٢هـ - ١٣٨٦هـ

تحقيق
محمد أجمل الإصلاحي

وفق المنهج المعتمد من الشيخ العلامة
بكر بن عبد الله أبو زيد
(رحمه الله تعالى)

تمويل
مؤسسة سليمان بن عبد العزيز الراجحي الخيرية

دار عالم الفوائد
للنشر والتوزيع


بسم الله الرحمن الرحيم

راجع هذا الجزء

عبد الله بن عبد العزيز الهدلق



مؤسسة سليمان بن عبدالعزيز الراجحي الخيرية
SULAIMAN BIN ABDUL AZIZ AL RAJHI CHARITABLE FOUNDATION

الطبعة الأولى ١٤٣٤هـ



دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع

مكة المكرمة ـ هاتف ٥٤٧٣١٦٦ - ٥٣٥٣٥٩٠ فاكس ٥٤٥٧٦٠٦

الصف والإخراج دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة التحقيق

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسوله الكريم وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد، فهذا السفر الذي بين أيديكم يشتمل على مجموعة من خطب العلامة الشيخ عبد الرحمن بن يحيى المعلمي ـ رحمه الله ـ ووصاياه.

أما الخطب فإنها جميعًا من خطب الجمعة والعيدين التي ألقاها الشيخ في بعض مساجد جيزان، في إمارة السيد محمد بن علي الإدريسي. وكان الشيخ يومئذ في عنفوان شبابه، فإنه لما وصل إلى حضرة الإدريسي في شهر صفر سنة ١٣٣٦ كان عمره نحو ٢٣ سنة، ولكنه قد بلغ من تعمقه في الفقه وتمكنه في غيره من العلوم المتداولة في عهده مبلغًا جعل السيد الإدريسي يوليه رئاسة القضاة، ويلقِّبه بشيخ الإسلام. وهاكم تعريفًا موجزًا بهذه الخطب:

(١) الزمان والمكان والعدد:

مكث الشيخ المعلمي في حضرة الإدريسي إلى وفاة السيد في شهر شعبان سنة ١٣٤١، وبعد وفاته سافر إلى الهند، فكانت مدة اتصاله بالسيد نحو خمس سنوات، وفي خلالها ألقيت هذه الخطب، ولكن أفي أولها، أم في وسطها، أم في آخرها؟

وينشأ عن ذلك سؤال آخر، هو أن هذه الخطب التي وجدت في مكتبة الحرم المكي الشريف في أوراق متفرقة، مختلفة في الطول والعرض واللون والشكل، مشطورة أو منهوكة، متمزقة أو مهترئة أحيانا من أوساطها أو أطرافها= هل هي كل خطب الشيخ، أو طارت ببعضها هُوج الرياح العواصف؟

قد توجه الشيخ بعد وفاة الإدريسي إلى الهند مصطحبًا كتبه ومؤلفاته ودفاتره، ومكث هناك خمسًا وعشرين سنة يصحح ويؤلف، ثم رجع إلى الحجاز يحمل رصيدًا جديدًا من كتب ومؤلفات ودفاتر ومذكرات بالإضافة إلى الأوراق القديمة، واحتفظ بها معه في مكتبة الحرم المكي الشريف إلى أن توفي في المكتبة سنة ١٣٨٦، فهذه خمس وأربعون سنة، والآن قد مضى على وفاته ٤٧ سنة أخرى= فمن المحال، بعد هذه المدة المديدة من الحل والترحال، أن تبقى تلك الأوراق المنثورة التي لم تضمها دفتان مجتمعة ومصونة من الضياع والتمزق والتأكل وغيرها من ضروب الاختلال. يؤكد ذلك أن بعض الخطب لم يوجد إلا نصفها أو جزء منها، فلا يبعد أن تكون خطب كاملة قد ضاعت.

أما الخطب التي وصلت إلينا فلا تزيد على ٥٦ خطبة غير الخطب الثواني، ومعنى ذلك أنها لا تكفي لأكثر من سنة وشهرين. وهذا يساعدنا على الإجابة عن السؤال الأول، وهو: هل يمكن تحديد زمن هذه الخطب من السنوات الخمس التي قضاها الشيخ في إمارة الإدريسي؟

يبدو لي ــ والله أعلم ــ أن زمنها يمتد من شهر جمادى الآخرة سنة ١٣٤٠ إلى شهر شعبان من سنة ١٣٤١. وقد استنبطت ذلك من الأمور الآتية:

الأول: أن ثلاث خطب منها انفردت بالتنبيه على شهرها و جمعتها، فكتب في رأس إحداها (٥٢): «الخطبة الأولى لرجب»، وفي أخرى (٥١): «الخطبة الرابعة لجمادى الثانية»، وفي ثالثة (٥٠): «الخطبة الثالثة لجمادى [الثانية]». هذا التنبيه يدل على أن هذه الخطب الثلاث أقدم الخطب التي بين أيدينا، فإن من عادة الإنسان أنه إذا أخذ في عملٍ جديد بالعناية والاحتفال في نظره حرَصَ في أول أمره على تقييد وقته ويومه وتاريخه، ثم يتكاسل فيما بعد ويتساهل. وقد يكون الشيخ بدأ يخطب من أول جمعة من شهر جمادى الآخرة، وفقدت الخطبتان الأولى والثانية ، أو قصد بالخطبة الثالثة الجمعة الثالثة، فكانت هي بداية خطبه. وستأتي قرينة أخرى على كونها أقدم خطب الشيخ.

الثاني: أن الخطبة الثامنة عشرة التي هي خطبة عيد الأضحى تفيد أن العيد في تلك السنة قد وافق يوم الجمعة، فإذا رجعنا إلى التقويم علمنا أن السنة التي وافق فيها يوم النحر يوم الجمعة من بين السنوات الخمس (١٣٣٦-١٣٤١) هي سنة ١٣٤٠ لا غير.

الثالث: لا توجد في المجموعة من خطب العيد إلا خطبة واحدة، وكذلك من خطب عيد الأضحى، فلم يدرك الشيخ إلا عيدًا واحدًا.

الرابع: أدرك الشيخ شهر شعبان مرتين، فإن سبع خطب في هذه المجموعة تتحدث عن فضل شهر شعبان.

(٢) البناء والشكل:

١) معظم الخطب قصار، فإن ثلاثة أرباعها لا تتجاوز ثلاث صفحات،

بل كثير من هذه جاءت في صفحتين فقط. وأطولهن خطبة العيد (٢٣) التي استغرقت ثماني صفحات، وتبقى عشر خطب، نصفهن في أربع صفحات والنصف الآخر في خمس إلى ستٍّ صفحات.

وقد ذكَّرنا حديثُ الطول والقصر هذا برسالة[١] للشيخ كتبها إلى «العلامة الهمام علم الإسلام السيد صالح بن محسن الصيلمي»، وذكر فيها أولا أن «الأولى في خطبة الجمعة قصرها ما أمكن اتباعًا للسنة ورفقًا بالمؤمنين، فإن فيهم من يشقُّ عليه القعود في مقام واحد مع ازدحام الناس...».

ثم أشار إلى السيد الإدريسي قائلًا: «كيف؟ ومولانا أيده الله تعالى وأولاد عمه وأعوانه كلهم تنالهم المشقة لإضرار الحر مع الازدحام بهم».

ثم أوصاه بأن تكون الخطبة قصيرة، و«لتبلغ الأولى قدر سورة الفجر، والأخرى أقصر».

وبعد ذلك أورد ـ على سبيل المثال ـ عن الجاحظ[٢] خطبة النبي ﷺ: «أيها الناس إن لكم معالم ... الجنة أو النار».

هذه الرسالة غير مؤرخة، فلا ندري أهي متزامنة مع خطب الشيخ أم لا. وكان للشيخ أن يمثل لمقدار الخطبة بسورة ق، فقد ورد في حديث أخت عمرة بنت عبد الرحمن في صحيح مسلم (٨٧٢) أن النبي ﷺ كان يقرأ بسورة ق والقرآن المجيد في كل جمعة؛ ولكن لعله مثَّل بسورة الفجر نظرًا

(١) هي ضمن مجموعة الرسائل المتبادلة.

(٢) انظر البيان والتبين (١/ ٣٠٢).

إلى اشتداد الحر ومراعاةً لجانب السيد وأبناء عمه وأعوانه الذين كانوا يتأذون بالحر مع الزحام، بل يبدو لي أن هذه الرسالة قد كتبت بإيعاز من السيد، والله أعلم. وأيًّا كان الأمر، فإننا إذا وزنّا خطب الشيخ بميزانه هذا، لم نجد منها ما يقارب سورة الفجر إلا ثلاث خطب (١٥، ٢٨، ٥٥)، بل الخطبة (٤٠) ختمها الشيخ بتلاوة سورة الفجر كاملة، وهي ثلث الخطبة أو أكثر.

٢) نسج الشيخ خطبه على منوال خطب ابن نباتة، بل نجد خطبة كاملة (٣٨) أخذها الشيخ من خطب ابن نباتة ، وتناولها بشيء من التصرف في ألفاظها و جملها، ثم أضاف إليها قبل ختمها بآية من القرآن الكريم حديثًا في فضل ليلة النصف من شعبان. فهذه الخطبة التي ألقيت في شهر شعبان، وأظن أنها من أوائل خطبه، قد اتخذها الشيخ فيما بعد مثالا يحتذيه في خطبه مع بعض الإضافات. وهي أن ابن نباتة لا يورد في خطبه نص الحديث بل يدخله ضمن كلامه، أما الشيخ فقد جعل للحديث في خطبته موضعًا معيَّنًا، وكتب بخط بارز كلمة «حديث»، ثم التزم إيراد حديث أو أكثر بنصه.

والأمور التي تابع الشيخ فيها ابن نباتة: موضوعات الخطبة، وكثرة الجمل الإنشائية، وعدم التمثل فيها بالشعر إلا في خطبة واحدة سيأتي ذكرها، والتمهيد لتلاوة الآية في الخاتمة بمثل هذه العبارة: «هذا، وإن أبدع الكلام نظما... كلام من وسع كل شيء رحمةً وعلمًا، والله تعالى يقول». هذه العبارة لابن نباتة، وقد كررها الشيخ في الخطبة (٥٣) ثم تفنن كابن نباتة في صياغتها بطرق متنوعة.

٣) رتب الشيخ خطبه عمومًا على الوجه الآتي.

١- المقدمة وهي تشتمل على حمد الله عز وجل، والشهادتين، والصلاة والسلام على نبينا محمد ﷺ.

٢- الموعظة، وستأتي الإشارة إلى موضوعاتها.

٣- الحديث، ويكتب قبل إيراده بخط جلي: كلمة «حديث».وكثيرًا ما يقتصر على حديث واحد، وقد يزيد.

٤- الآيات، ويمهد لها بعبارة تابع فيها ابن نباتة، كما سبق.

٥- الخاتمة، وهي جملة أو جملتان من الدعاء ولا يلتزم كتابتها.

الجدير بالذكر أن خمس خطب (٣٦،٣٧،٥٠،٥١،٥٢) لم ترتب هذا الترتيب، لأنها أقدم الخطب كما سيأتي، فالظاهر أن الخطبة (٣٨) وهي خطبة ابن نباتة التي أخذها الشيخ بشيء من التصرف هي التي كانت نموذجًا لخطبه في المستقبل.

هذا ترتيب الخطب الأُوَل. أما الخطب الثواني، فيستهلها بحمد الله والشهادتين، ثم يلقي موعظة قصيرة، يقفوها الصلاة والسلام على النبي ﷺ وإخوانه المرسلين، ثم الدعاء للخلفاء الراشدين: كلٍّ على حدة، مع ذكر ألقابه.

وعند ذكر علي بن أبي طالب يضم إليه ذكر فاطمة والحسن والحسين رضي الله عنهم.

ويتبعهم الدعاء للستة المتممين للعشرة، وأهل بيعة الرضوان والشجرة، وعمي النبي ﷺ: الحمزة والعباس، وأمهات المؤمنين وترجمان القرآن عبد الله بن العباس، ثم التابعين وتابعيهم بإحسان.

بعد ذلك يدعو لعز الإسلام والمسلمين، ويطيل في الدعاء للنصر والتأييد لإمام المسلمين وأتباعه وأوليائه، والدعاء على خصومه ومخالفيه وأعدائه، ثم يدعو لعامة المسلمين.

هذا إذا أطنب وفصَّل، وإذا اقتضى المقام أن يوجز ترضَّى ـ بعد الصلاة والسلام على محمد ﷺ ـ عن «أهل بيته الأطهار، وخلفائه الأبرار، وصحابته الأخيار» دون ذكر الأسماء والألقاب.

(٣) المحتوى:

١) الخطب التي ألقيت في العيدين والشهور والأيام الفاضلة أو بعض المناسبات كان الحديث فيها منصبًّا على تلك المواسم والمواقيت.

فالخطب التي ألقاها في شعبان ذكر فيها فضل ليلة النصف من شعبان وأورد الأحاديث الواردة فيه، ودعا الناس إلى استقبال شهر رمضان والاستعداد له.

وفي خطب رمضان بيَّن لهم فضائله، وأنه شهر التوبة والإقلاع، وأنه أنزل فيه القرآن، وأن فيه ليلة القدر؛ وحثهم على اغتنام ساعاته. وفي آخر خطب رمضان نبَّههم على إخراج زكاة الفطر قبل خروجهم إلى صلاة العيد.

ثم في خطبة العيد ذكر أحكام زكاة الفطر وفضلها، وأن لا يقصروا عن طاعة الله سبحانه بعد انقضاء رمضان، وأن يعلموا أنهم قد خرجوا من شهر الصيام إلى أشهر الحج الحرم.

وكذلك في خطب ذي الحجة ذكر فضل الأيام العشرة من الشهر، ثم في خطبة عيد الأضحى فصّل القول في أحكام الأضحية، وأورد خطبة النبي

ﷺ يوم النحر. وأشار إلى فضل اجتماع العيد والجمعة في يوم واحد.

وفي خطب رجب أشار إلى أن هذا الشهر شهر الله الحرام، وشهر العبادة والفضيلة، وأنه تضاعف فيه الأعمال.

ويتصل بخطب المواقيت والمناسبات هذه خطبة خطب بها أيام الجدب، فحث الناس على التوبة والإقلاع عن الذنوب، والإكثار من الصدقات، وتطهير الصدور من الحسد والشحناء، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وذكَّرهم بأن المعاصي تزيل النعم وتستنزل النقم، وأن النقمة إذا نزلت قلما ترفعها إلا التوبة عن أسبابها، وتلا عليهم قول الله تعالى في سورة نوح: ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ ...﴾ الآيات، وأورد الحديث القدسي المشهور: «**يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي**» الحديث.

ويتصل بها أيضا خطبة فريدة كتبها الشيخ لما جاءه نبأ وفاة أخيه «الفاضل العالم العامل عز الإسلام: محمد بن يحيى بن علي المعلمي» فذكر عظم مصابه، ووصف شدة حزنه وتفجعه عليه.

أما سائر الخطب فهي تدور حول الوصية بالتقوى، والتحذير من حب الدنيا الخداعة، والغفلة عن الآخرة، والتهاون بالمحرمات، والاغترار بطول الأمل، وهجوم الموت في أي لحظة؛ والترغيب في ذكر الله وتلاوة القرآن، والحث على أداء الفرائض والسنن، واجتناب المحرمات، والابتعاد عن المكروهات، والدعوة إلى التفكير في خلق الإنسان ولطف الله به ورحمته، وحساب النفس قبل هول الحساب، والاعتبار بمن مضى من الملوك

والمترفين وبمن اختطفهم هاذم اللذات من أحبائه وأقربائه، والتسويف بالتوبة، والإصرار على المعاصي؛ والتخويف بما أمام الإنسان من أهوال القبر، وتصوير عاقبة الصالحين ومآل الفاسقين، وما إلى ذلك.

هذه موضوعات الخطب الأوَل، وهي التي تناولها الشيخ في الموعظة القصيرة التي تتضمنها الخطب الثواني أيضا.

وعلى أن فواتح الخطب كلها تشتمل على صفات الله سبحانه، فصَّل الشيخ في بعضها أصول الإيمان والأسماء والصفات.

٢) قد التزم الشيخ ــ كما سبق ــ أن يورد في كل خطبة بعد الموعظة حديثا أو أكثر، ولكن لم يلتزم أن يكون الحديث صحيحًا، بل تساهل مثل غيره من العلماء والخطباء في ذكر أحاديث ضعيفة، بعضها شديد الضعف، وبعضها موضوع.

وكذلك ردَّد في بعض الخطب مقولات مبنية على أحاديث ضعيفة أو موضوعة، نحو وصف النبي ﷺ بأنه «سبب الوجود» (٤١)، وأنه «فاتحة خلقهم، فهو أول أولهم، وأوسط أوسطهم، وآخر الآخرين» (٣٦)، وأن «أهل بيته أمان أهل الأرض، كما أن النجوم أمان أهل السماء» (٥)، ووصف علي بن أبي طالب رضي الله عنه بأنه «باب مدينة العلم» (٥٨،٥٩،٦٠).

ومن الأحاديث الضعيفة: ما أخرجه ابن ماجه (١٣٨٨) في فضل ليلة النصف من شعبان من حديث علي بن أبي طالب بلفظ: «إذا كانت ليلة النصف من شعبان، فقوموا إليها، وصوموا يومها». وفي سنده أبو بكر بن أبي سبرة، وقد رمي بالوضع. أورده الشيخ في الخطبة (٣٦) كذا مختصرًا،

ثم أورده كاملا في الخطبتين (٣٨،٤٤).

ومنها: حديث «ألا، إن مثل أهل بيتي فيكم مثل سفينة نوح، من ركبها نجا، ومن تخلف عنها هلك» (٥٨،٦٢).

ومن الأحاديث الموضوعة: ما أورده في فضل شهر رجب في الخطبة (١٦): «فضل رجب على سائر الشهور كفضل القرآن على سائر الكلام». قال الحافظ ابن حجر: موضوع، كما في الفوائد المجموعة للشوكاني بتحقيق المعلمي(٣٨١).

ومنها الحديث المشهور على ألسنة الخطباء: «أصحابي كالنجوم، فبأيهم اقتديتم اهتديتم» (٥٨،٦٢).

ومن أغربها: الحديث الطويل الذي أورده في الخطبة (٥٢) ـ وهي من أقدم خطبه كما سبق ـ عن النبي ﷺ قال: «ما من بيت إلا ملك الموت يقف على بابه كل يوم...» الحديث.

هذا الحديث هو الحديث الأربعون من المجموعة المسماة بالأربعين الودعانية، وهي بأسرها موضوعة باطلة. نقل الحافظ ابن حجر عن الحافظ المزي أنها «فضيحة مفتعلة وكذبة مؤتفكة». وقد وضعها زيد بن رفاعة ملفقًا بين بعض كلام النبي ﷺ وكلام المشايخ والحكماء، وسرقها منه ابن ودعان، فركَّب لها أسانيد من أناس عامتهم مجهولون، ومن يُشَكُّ في وجوده! وذكر الشوكاني أن هذه المجموعة هي التي يقال لها في ديار اليمن «السَّيلقية». انظر: لسان الميزان (٧/ ٣٨٣-٣٨٤) والفوائد المجموعة للشوكاني بتحقيق المعلمي (٣٦٦).

وكانت لهذه المجموعة المختلقة شأن عظيم عند أئمة الزيدية وعلمائهم، فعني غير واحد منهم بشرحها، فذكر الشوكاني في ترجمة «الإمام المؤيد» يحيى بن حمزة (ت٧٠٥) أنه شرحها في مجلدين بعنوان «الأنوار المضية شرح الأحاديث النبوية على السيلقية». قال: «والسيلقية هي المعروفة عند المحدثين بالودعانية». انظر: البدر الطالع (٢/ ٣٣١-٣٣٢).

ومن شروحها: «حديقة الحكمة النبوية في شرح الأربعين السيلقية» لعبد الله بن حمزة الملقب بالإمام المنصور (ت٦١٤)، واختصره أحمد بن علي مرغم في كتابه «التحفة السنية المنتزع من الحديقة النبوية»، وقد طبع هذا المختصر، كما في مصادر الفكر الإسلامي في اليمن للحبشي (١/ ٦٠٢).

وفي إحدى الخطب (٥٦) جاء في وصف الله سبحانه وتعالى أنه «لا في السماء محلُّه، ولا على العرش منزلُه». وهذا مخالف للعقيدة الصحيحة التي قررها الشيخ فيما بعد، ونافح عنها، ورد على منكرها. وقد بيَّنها في وصيته لتلميذه محمد بن أحمد المعلمي أيضًا، وهي ضمن هذا المجموع.

وأحب أن أنبه هنا على أن قيمة هذه الخطب ليست في الأحاديث الواردة فيها، بل في أسلوبها وصياغتها، ثم في كونها تمثِّل مرحلة خاصة من مقتبل حياته، وهي مدة قصيرة من خمس سنوات قضاهن في إمارة السيد الإدريسي. و هو وإن كان قد تفوق في هذه المرحلة المبكرة على أقرانه في العلوم المتداولة في عهده وبيئته، وأصبح رئيس القضاة وشيخ الإسلام، ولكن مذهبه في العقيدة والتصوف لم يكن مختلفا اختلافًا كبيرًا عن مذهب السيد الإدريسي وغيره من معاصريه من فقهاء الشافعية. أما المنزلة العليا التي بلغها الشيخ فيما بعد في علم الحديث والرجال، فكانت تنتظره في

دولة حيدراباد الدكن. فأصبح عالمًا محققًا مستقلًّا بآرائه ومذاهبه غير مقلِّد لأحد، مع احترامه البالغ لجميع أئمة الإسلام وعلماء الأمة.

٣) لم ينشد الشيخ شعرًا في شيء من خطبه إلا خطبة واحدة كتبها إثر وفاة أخيه وهو بعيد عنه، فقد أنشد فيها أحد عشر بيتًا: بيتين لأبي الفرج الساوي في غرور الدنيا، وبيتين للعباس بن الأحنف، وأربعة أبيات لسلمة بن يزيد الجعفي في رثاء أخيه، وبيتًا لكعب بن زهير، وآخر لحريث بن زيد الخيل. هذه الأبيات العشرة تمثل بها الشيخ، والبيت الحادي عشر أنشده لنفسه فقال:

أحقًّا عبادَ الله أن لستُ رائيًا شقيقيَ بعد اليوم إلا توهُّما

(٤) اللغة والأسلوب

١) جميع هذه الخطب مسجوعة. وسجعها ممتع جميل لا يبدو عليه أثر التكلف إلا ما ندر. وقد تفنن الشيخ في السجع، فيبني الخطبة أحيانًا على حرف واحد يختم الفقرات به، ولكن السجعات في داخل كل فقرة تأتي على حروف مختلفة. ومن أمثلة ذلك قوله في الخطبة التي بناها على حرف الراء:

«ولم يزل يتودد إليكم بالنعم، ويخوفكم بقوارع النقم، وأنتم راكضون في المعاصي ركضَ الجواد في المضمار!

تمنِّيكم الدنيا زورًا، ويعدكم الشيطان غرورًا، كأنكم واثقون بامتداد الأعمار!

هذا هاذم اللذات بين نظركم يغدو ويروح، وله كل حين زورة تفرِّق بين جسد وروح، وما يدريك ـ ابن آدم ـ أيَّ ساعة يُنشِب فيك الأظفار!

فالتوبةَ التوبةَ قبل هجومه، والإنابةَ الإنابةَ قبل قدومه، فإذا نـزل انسدَّت أبواب الأعذار».

وقد بنى خمس خطب (٣٦،٣٧،٥٠،٥١،٥٢) على آيات من القرآن الكريم، فالخطبة (٥٠) مثلا اشتملت من مقدمتها إلى آخر موعظتها على تسع فقرات، وكل فقرة تشتمل على أربع فواصل إلى إحدى عشرة فاصلة بنيت على مثال فاصلة الآية التي ختمت بها الفقرة.

فالفقرة الثانية مثلا فواصلها: قدرتِه، بعزتِه، حكمتِه، حجتِه. وخاتمتها قول الله تعالى في سورة الإنسان: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ﴾.

والفقرة التاسعة فواصلها: الذراع، بالاقتلاع، إيداع، القناع، الارتفاع، الانتفاع، انقطاع، الأطماع. وخاتمتها قوله تعالى في سورة الرعد: ﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ وَفَرِحُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٞ ﴿٢٦﴾﴾.

وقد سبق أن الخطب الثلاث (٥٠، ٥١، ٥٢) مؤرخة بالجمعتين الأخيرتين من جمادى الآخرة والجمعة الأولى من رجب.

أما الخطبتان (٣٦، ٣٧) فذكر في أولاهما بعض أحاديث فضل ليلة النصف من شعبان، أما الأخرى فلم نجد فيها ما يدل على الشهر الذي ألقيت فيه، ولكنها مكتوبة على الوجه الثاني من الورقة التي كتبت فيها الأولى، فلعلها ألقيت في شهر رجب، فهاتان الخطبتان أيضًا في ظني كالخطب الثلاث السابقة أقدم هذه المجموعة، فلعل الشيخ لما نُصب خطيبًا، وكان إذ ذاك شابًّا ابن زهاء سبع وعشرين سنة، أراد إثبات مقدرته الأدبية واللغوية،

فاحتشد لتحبير خطبه الأولى على هذا النمط.ومن مظاهر عنايته واحتفاله أنه في الخطبة الثالثة لجمادى الآخرة، وهي أقدم الخطب، ترك فراغًا بعد كل فاصلة.

وأحيانًا ينوِّع الفواصل بين فقرات الخطبة، وكذلك في داخل كل فقرة. فيأتي في فقرتين متواليتين بفاصلتين على حرف واحد، ثم خمس فواصل على حرف آخر، وفي الفقرة التي بعدها خمس فواصل كلها على حرف واحد. انظر مثلا الخطبة رقم (٨).

وأحيانًا يبني فواصل الخطبة كلها على حرف واحد، كالخطبة (٩) فإنها بنيت على حرف الدال، ومع ذلك ليست مملة، لأن الفواصل لا تأتي متقاربة، وقد يباعد بين فاصلتين بسجعات عديدة قصيرة. كقوله فيها:

«واعلموا أن الأعمال هي الجنة، فأكثروا أو أقلوا أو اتركوا، قبل انقطاع العمر وهجوم الصائد.

قبل مفاجأة الموت القاطع، والسم الناقع، والبلاء الصادع، للأقارب والأباعد.

قبل حلول التراب، وحلول الثواب والعقاب، وسؤال منكر ونكير، فتنبه يا راقد!

قبل البعث والنشور، ودعوى الويل والثبور، وبلوغ المواعد.

قبل نصب الميزان، وزفير النيران، ومناقشة الحساب بين يدي أبصرِ ناقد».

٢) تمتاز هذه الخطب بحسن الديباجة، وجودة السبك، ونصاعة البيان.

وأسلوبه يجمع بين السهولة والجزالة. وقد أكثر فيها من استعمال التراكيب الإنشائية، من الأمر والنهي والاستفهام والتعجب والنداء.

٣) تجنب الشيخ استعمال المفردات الغريبة والتراكيب المعقدة، غير أنه لما كان معظم مخاطبيه من عامة الناس تسرَّب إلى كلامه ألفاظ وتراكيب دارجة، ومنها:

- مُسترّ (٣) بمعنى مسرور.

- بَشاش(٧) بمعنى البشاشة.

- تجارأ (٣٥) من الجراءة.

- حبَّط (٣٩).

- قُذورات (٥٠، ٥١).

-لجَّيتم (٥٦) بالإدغام.

- مواددة (٤٩) بفك الإدغام.

ومن الاستعمالات العامية: قوله في الخطبة (٤٧): «قريب ثلاثة ريال... خمسة ريال... عشرة ريال».

ومنها: صرف كلمة «سكران» في قوله: «تقلبه الدنيا جنبًا على جنب سكرانًا».

ومن التراكيب القليلة الورود: «كأنه يظنُّ إمهالَه ربُّه من الإهمال» (٢٨)، أضاف المصدر إلى مفعوله، ورفع فاعله بعده.

وقد استعمل الشيخ صيغتين أستغرب غلطه فيهما. إحداهما: «لَقِيُوا»

(٣٤) مكان «لَقُوا». والأخرى: «أخابَ» في قوله: «فما أخابَ من عصاه وأشقاه!» (٢٢)، أراد اسم التفضيل من خاب يخيب، فقال: «أخابَ» مكان «أخيَب»، وهذه أغرب.

(٥) النسخة الخطية

النسخة المصورة لهذه الخطب محفوظة في مكتبة الحرم المكي الشريف برقم ٤٧٠٢، وفيها ٦٨ لوحة، واللوحة الواحدة تشتمل على صفحة أو صفحتين مكتوبتين أو إحداهما بيضاء، أو ثلاث صفحات. والصفحة تعني صفحة كاملة موفورة، أو نصف صفحة في الطول، أو نصفها في العرض، أو ربعها، أو قطعة منها سليمة أو غير سليمة من عوادي الزمن.

والخطب أكثرها مسودة، وتوجد لبعضها مبيضة أيضًا، نحو الخطبة العاشرة، إذ وردت مسودتها في اللوحة (١٥) وتكملتها في (١٤/ أ) ومبيضتها في (١٦/ ب). وهي كلها بخط الشيخ سواء أمسودة كانت أم مبيضة.

وقد اطلعت على الأصل المخطوط في مكتبة الحرم المكي، فرأيت أوراقًا منثورة مختلفة الألوان، متفاوتة الأحجام، وضعوها بين ورقتين سميكتين، فإنه لا يمكن تجليدها على هذا الوجه، ثم حفظوها في ظرف.

وكتبوا في الورقة الأولى (ل ١): «مجموعة خطب للشيخ المعلمي»، وتحته: «حوالي ٥٠ خطبة». وفي صفحة أخرى في (ل ٢/ ب) كتب بخط مجوّد في دائرة: «الخطب الجمعية».

لم تكن هذه الأوراق مصورة من قبل، فصورت ضمن المسودات والأوراق التي طلب تصويرها لأجل هذا المشروع.

وقد وُجدت مع خطب الشيخ أوراق أخرى، لا علاقة لها بالخطب، ثم صورت معها، وستلحق حسب موضوعاتها بمجموعات أخرى، إلا رسالة بعنوان «الجهاد سنام الإسلام» ألحقناها بالخطب.

(٦) منهج التحقيق

نسختُ الخطب جميعًا من القرص حسب ترتيبها في التصوير، فبلغ مجموعها ٦٩ خطبة، ومنها ١٢ خطبة من الخطب الثواني. وكانت الخطب الأوائل والثواني مختلطة فيما بينها، فرأيت أن أفصل بينها، فقدمت الأوائل على الثواني.

ثم لاحظت أيضًا تشابُهَ عدد من الخطب الثواني، بل توافقها إلا قليلا، فاخترت منها ستَّ خطب فقط.

سبق أن الأوراق في الأصل كانت منثورة فنصف الخطبة مثلا في ورقة، ونصفها في ورقة أخرى، ولا رابط بينهما، فصُوِّرت الأولى في لوحة، والأخرى بعد لوحات، أو قبل لوحات؛ أو جمعت لوحةٌ خطبةً وتكملة خطبة أخرى، فجمعتُ شملَ المتفرقات، وفرّقتُ شملَ المجتمعات، وما أردت إلا الإصلاح.

عندما نسخت الخطب من القرص وجدت صعوبة في قراءة بعض الكلمات والجمل لأن مواضعها كانت متمزقة أو مهترئة، أو لأن انثناء الورقة أو لصق الورقة بعد تمزقها قد أخفاها. فسافرت إلى مكة المكرمة للاطلاع على الأصل ومراجعة المواضع التي اختفى فيها بعض الكلمات والجمل خاصةً، وقد نجحت بفضل الله وتوفيقه في قراءة معظمها.

أما مواضع الخرم، فإن أمكن تقدير الكلمات الضائعة أوتخمينها بالنظر في السياق وضعت قراءتي بين حاصرتين، وإلا وضعت حاصرتين أيضًا للدلالة على الخرم.

في ترقيم اللوحة، إذا اشتملت على صفحة واحدة فقط، أو على صفحتين ولكن إحداهما بيضاء، لم أصرح بالألف والباء. وإذا رأيت معهما الجيم أيضا فاعلم أن اللوحة اشتملت على ثلاث صفحات مكتوبات.

لم أتكلف ترتيب الخطب على أشهر السنة، وإن كان بالإمكان استخلاص الخطب المتعلقة بشهر رمضان وأشهر الحج، لأن الخطب الأخرى لم يكن سبيل إلى ترتيبها، بل ترتيب الخطب السابقة فيما بينها أيضا لم يكن أمرا يسيرا.

بعد قراءة النص علقت عليه عند الاقتضاء، وعنيت بالتوثيق والتخريج باختصار، ولم أر حاجة لشرح المفردات، فهي مألوفة لقارئ هذه الخطب.

* * * *

ملحقات المجموع

١) الجهاد سنام الدين

وجدنا في آخر مجموعة الخطب (ل ٦٧-٦٨) رسالة بعنوان «الجهاد سنام الإسلام» وقع الشيخ في آخرها باسمه الكامل «عبد الرحمن بن يحيى بن علي المعلمي». وهي رسالة حماسية أشبه بالخطبة، فألحقناها بالخطب، كما كانت ملحقة بها في المصورة.

وهي تشتمل على مقدمة وخاتمة وبينهما ثلاثة مباحث: الأول: في الجهاد بالنفس، والثاني: في الجهاد بالمال، والثالث: «في النصائح والتحريض والتشجيع وفضائل ثوابه، والنهي عن التثبيط وذكر رذائل عقابه».

وختم هذا المبحث الأخير بقوله: «إخواني إلام تكاسلون؟ إلام تثبطون؟ حتام قاعدون؟ حتام تأخرون؟ علام أنتم ناضبو الغيرة والحمية؟ كأنكم راغبون عن الإمامة والحرية، إن هذه لإحدى الكبر».

وفي خاتمة الرسالة ذكر الذين يزعمون أن هذا الجهاد ليس لوجه الله تعالى، فقال: «فهب هذا الجهاد ليس لوجه الله تعالى، أليس دفاعًا عن أوطاننا وأهلينا ونسائنا وأولادنا...؟ فأين عقولهم يا ترى؟ أيظنون أن عدونا ــ والعياذ بالله ـ إذا تمكن من دخول بقية بلادنا يبقينا كما عليه اليوم ما في يده؟».

والرسالة كلها حث وتحريض، وتخويف وتحذير، ولوم وتبكيت؛ فقد صدرت عن قلب متألم لحال المسلمين الغافلين عن مكايد العدوّ، والقاعدين عن الجهاد والمثبطين عنه، مع انتسابهم إلى العلم والفقه.

٢) الوصايا

أما الوصايا التي ألحقناها بهذه المجموعة فهي أربع. اثنتان منها كتبهما الشيخ لما كان في جيزان في إمارة الإدريسي، والثالثة كتبها في حيدراباد بالهند، والرابعة في مكة المكرمة.

أما الوصيتان اللتان كتبهما في جيزان فهما من مجموع بخط الشيخ برقم ٤٧٠٨، والأولى منهما في اللوحة (٦٠) والثانية في (٦١/ ب). والظاهر أن الثانية ليست إلا مسودة ناقصة لم يخرج فيها الشيخ عن بيان اعتقاده،

والأولى هي الأصل. وذكر الشيخ في هذه بعد المقدمة وطنه، وحدده تحديدًا دقيقًا، وكذلك حدد مقام والده وأخيه. ثم أوصى السيد الإدريسي في الأشياء التي عنده كيف يوصلها إلى والده أو أخيه. وقد بينها في ورقة منفصلة لم نجدها مع الوصية. ومما يلفت النظر في هذه الوصية أمران:

الأمر الأول: عن كتبه، فقد أوصى ببقائها في بيت والده، ووقفها على أولاده الذكور، وأن يكون ناظرها هو الأعلم الأورع منهم، وأن لا يمنع غيرهم من المطالعة، ولكن لا يسلم كتاب لأحد إلا بورقة، وأن يتعاهدها في الشهر مرتين.

والأمر الثاني: عن كتاباته، إذ سأل والده وأخاه جمعَ شعرِه ومذكراته ونشرها إن تيسر. وكذلك سأل السيد الإدريسي أن يأمر بجمع مدائحه فيه وطبعه. وقد ادخر الله سبحانه سعادة تنفيذ وصية الشيخ للقائمين على هذا المشروع المبارك إن شاء الله، فوفقهم لنشر جميع ما تيسر لهم الحصول عليه من كتب الشيخ ورسائله ومذكراته في صورة موسوعة كاملة وعلى أحسن وجه من الطباعة والإخراج، فجزاهم الله أحسن الجزاء.

أما الوصية الهندية ففيها بعد المقدمة ثلاثة أمور مهمة:

الأول: وصيته لكل مسلم بتحقيق التوحيد واجتناب البدع كلها، واتباع ما تبين له أنه الحق سواء أكان مذهب إمامه أم مذهب غيره.

والثاني: وصيته عن ولده ــ إذا توفي الشيخ قبل بلوغه ــ أن يجتهد الشيخ إبراهيم رشيد في تربيته تربية صالحة، وإلزامه إذا وصل حد القراءة بحفظ القرآن وتلقينه التوحيد الحق.

والثالث: وصيته في كتب كانت عنده لورثة السيد الإدريسي لترسل إليهم، ومنها نسخة خطية لتدريب الراوي.

وقد ولد ابنه المذكور في الهند في ٦ ربيع الآخر ١٣٥١، فتاريخ هذه الوصية فيما بين ١٣٥١-١٣٥٦. ولم أقف على أصل هذه الوصية، وإنما اعتمدت في نشرها على مقدمة المحقق لكتاب «عمارة القبور» للمعلّمي (طبعة المكتبة المكية) وقد أورد الوصية ضمن ترجمة المؤلف (ص٣٢- ٣٣).

أما الوصية الأخيرة فهي وصية الشيخ لتلميذه محمد بن أحمد المعلمي، الذي لزمه في مكة المكرمة عامين كاملين وقرأ عليه وخدمه، كما ذكر الشيخ، فلما أراد الرجوع إلى وطنه سأل الشيخ أن يكتب له وصية نافعة. وهي وصية جامعة مفصلة، رتبها على ثمانية مطالب، ستة منها في أركان الإيمان والإسلام وأعمال التطوع. والمطلب السابع في مخاطبة الناس، والثامن في مصالح الدنيا ومعاملة الناس.

وفي آخر الوصية كتب الشيخ اسمه وتاريخها، وهو ٧ محرم الحرام سنة ١٣٧٤، يعني قبل وفاته باثنتي عشرة سنة.

لم نقف على أصل هذه الوصية وإنما اعتمدنا في نشرها على مطبوعتها التي صدرت عن دار ابن حزم في بيروت سنة ١٤٣٠ بعناية الشيخ عبد الرحمن عبد القادر المعلمي.

٣) نصيحة لطالب الحق

آخر ملحقات هذا المجموع: «نصيحة لطالب الحق». وهي في الأصل جزء من مقدمة الشيخ لبعض مسوداته في أحكام أخبار الآحاد. وله رسالة

في هذا الموضوع ضمن مجموعة رسائله في الأصول، والظاهر أن الشيخ لما بيضها كتب لها مقدمة جديدة.

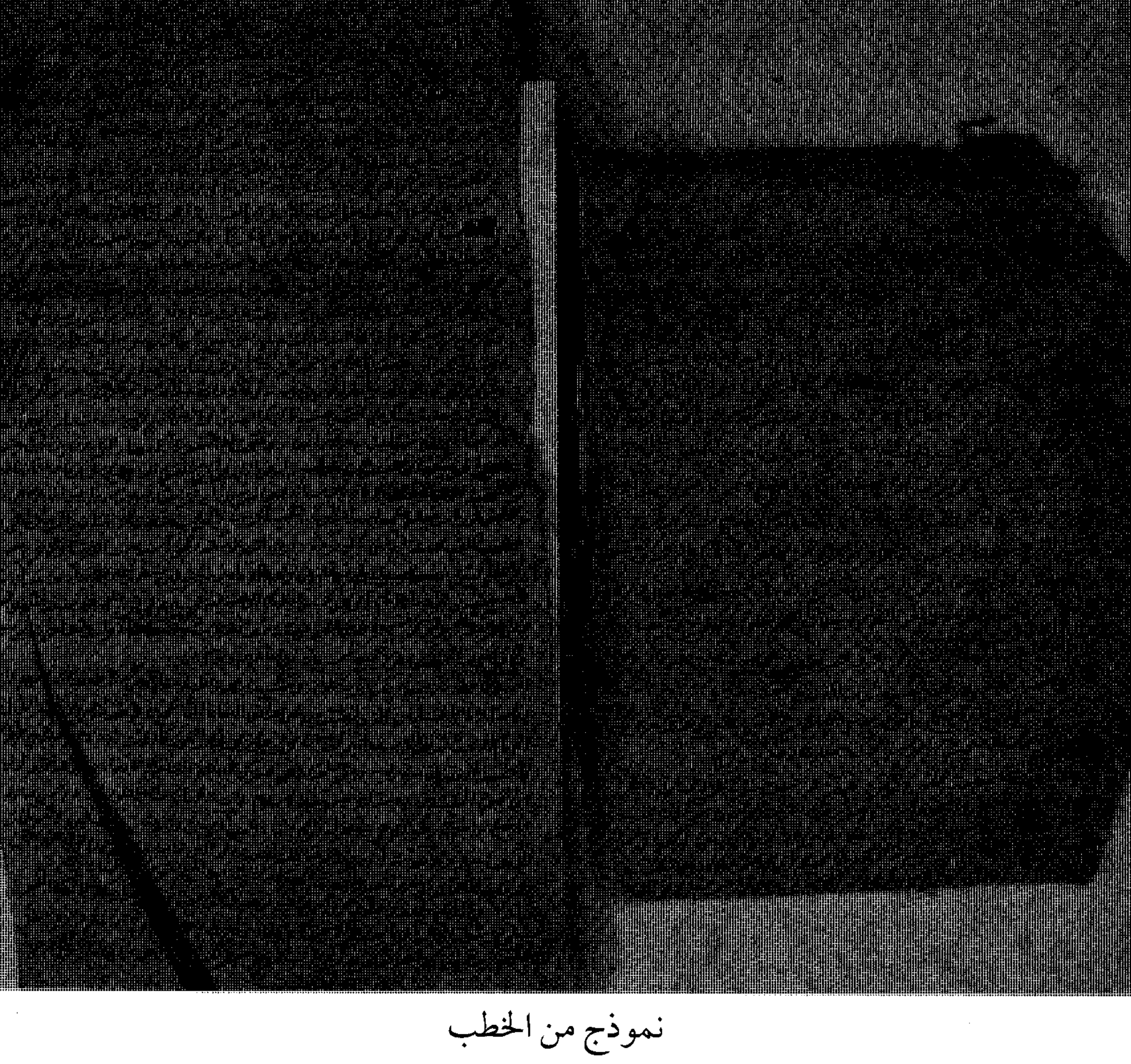
أما هذه فقد عثر عليها الشيخ محمد عزير شمس في كراسة صغيرة غير مرقمة، فنسخها منها. ولما كانت نصيحة عامة لطالب الحق بأن يهتم قبل النظر في أي مسألة بمحاسبة نفسه وبذل وسعه في التجرد عن الهوى سائلًا الله سبحانه أن يعينه ويوفقه لإصابة الحق= رأينا أن تكون مسك الختام لهذه الوصايا، بل لهذا المجموع كله.

وفي آخر هذه الكلمة أشكر للأخ الفاضل الشيخ نبيل السندي الذي أعانني على تخريج بعض الأحاديث، وراجع التجارب النهائية مراجعة دقيقة، فجزاه الله خير الجزاء. والحمد لله أولا وآخرا.

محمد أجمل أيوب الإصلاحي

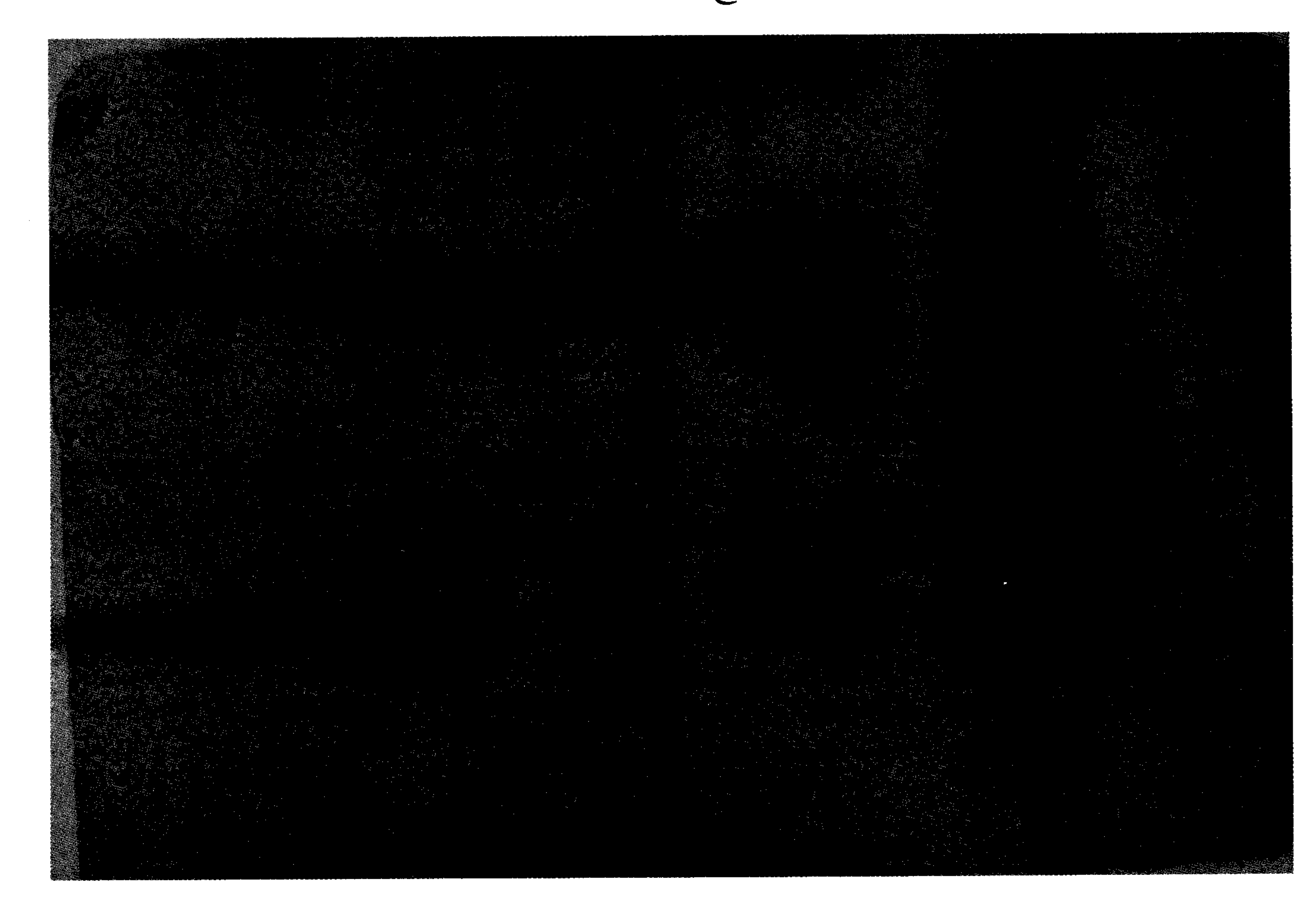
الرياض ٩ شعبان ١٤٣٣

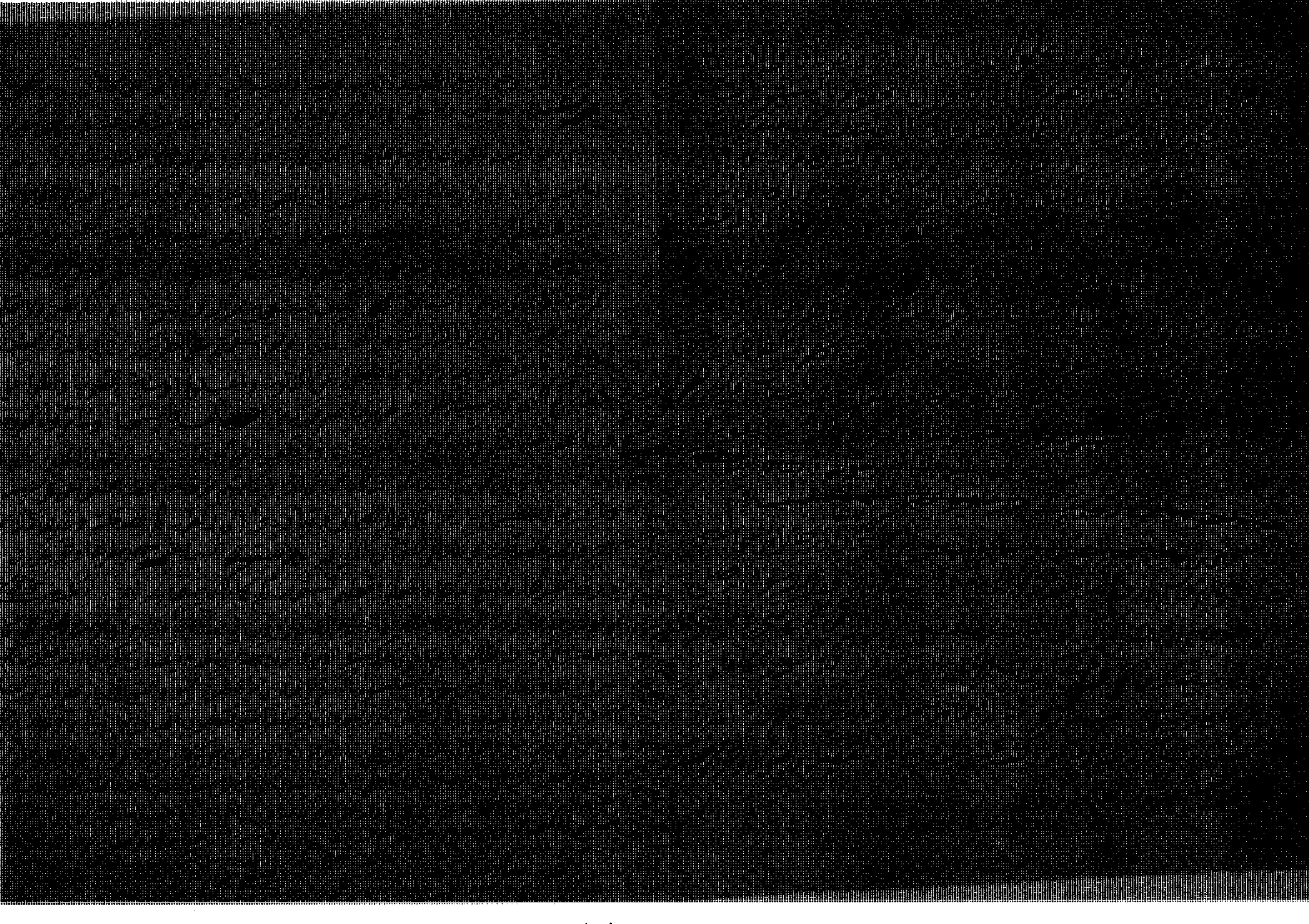
نماذج من النُّسخ الخطية



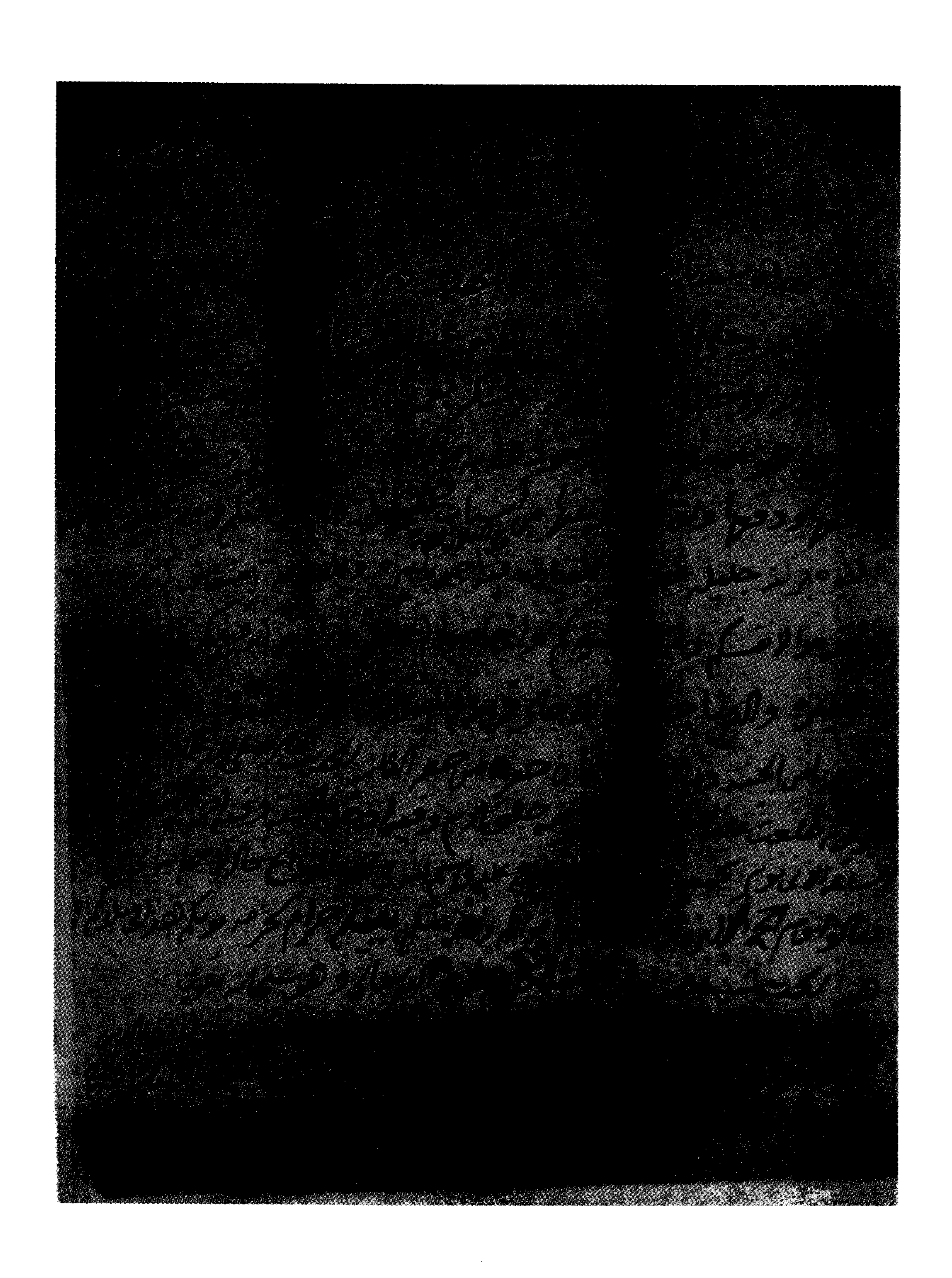
نموذج من الخطب

نموذج من الخطب

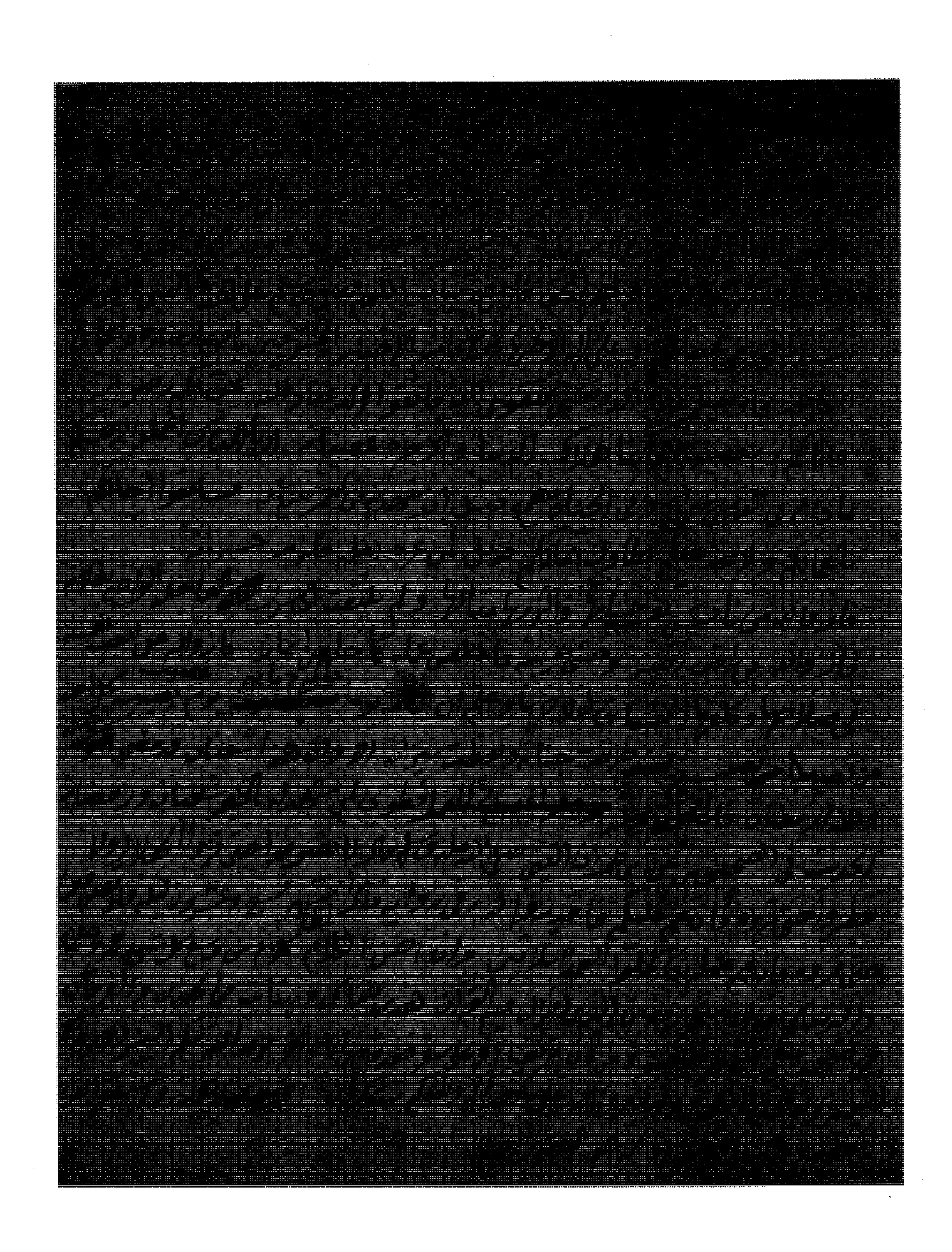




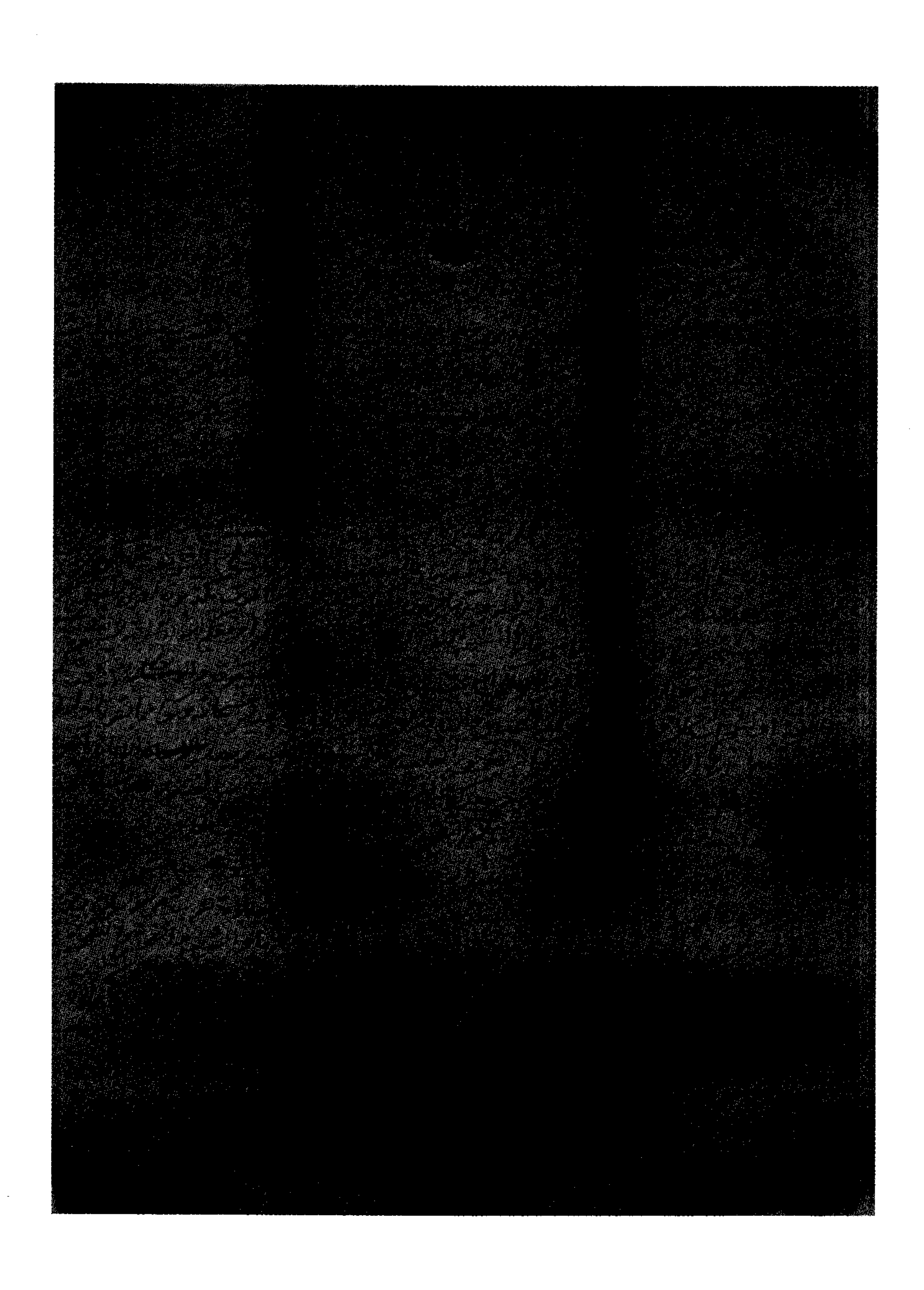
نموذج من الخطب



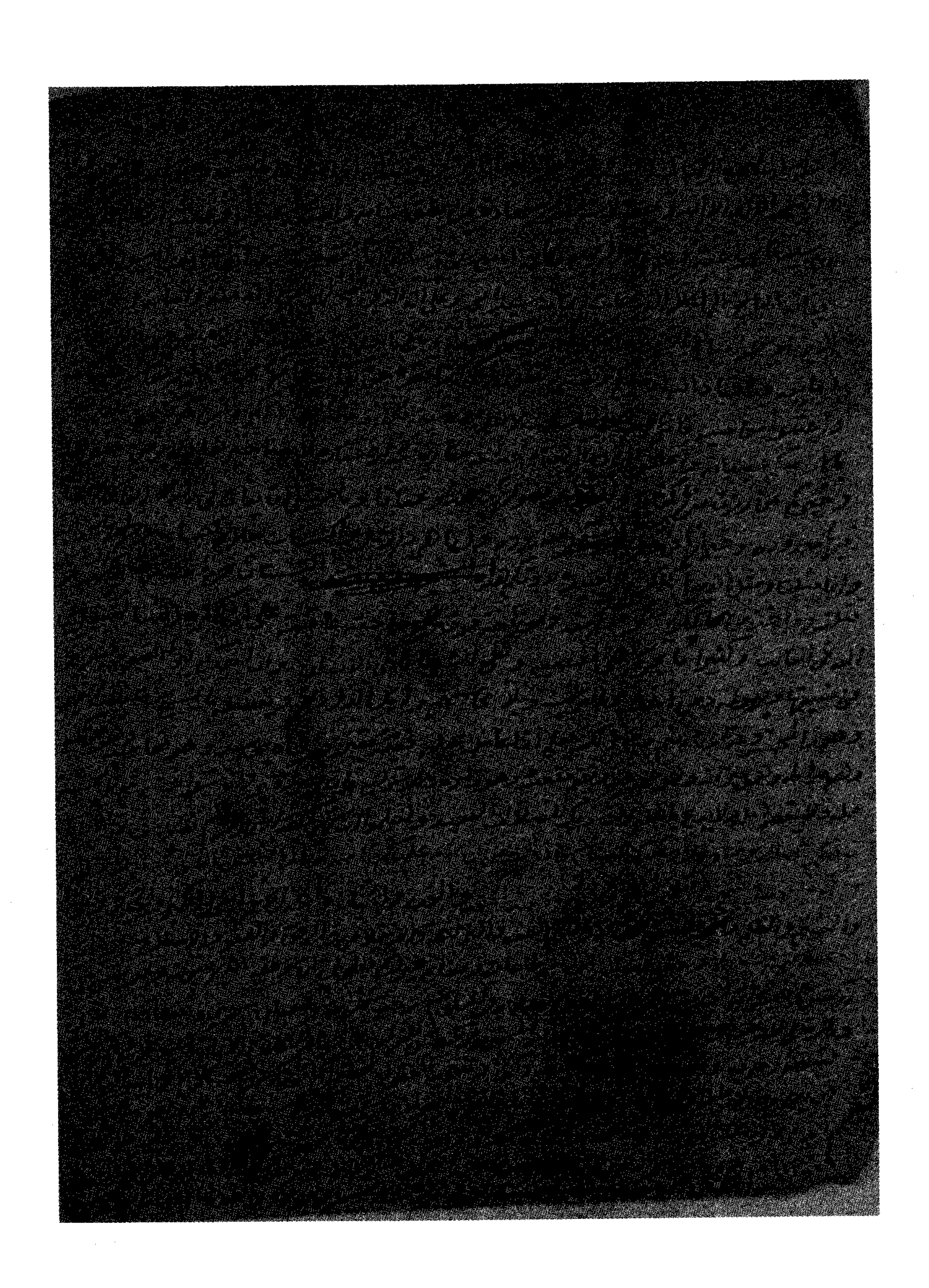
نموذج من الخطب



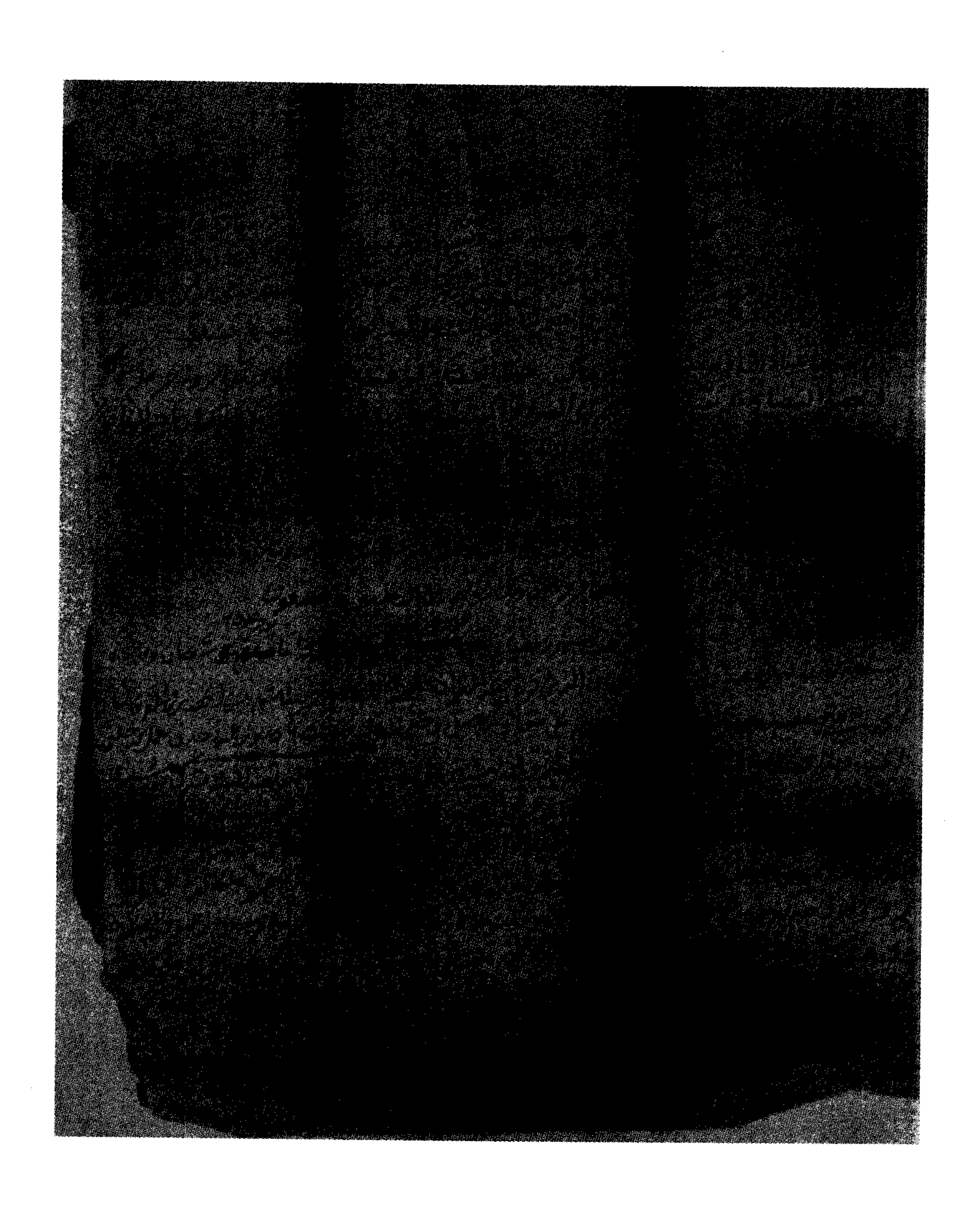
نموذج من الخطب



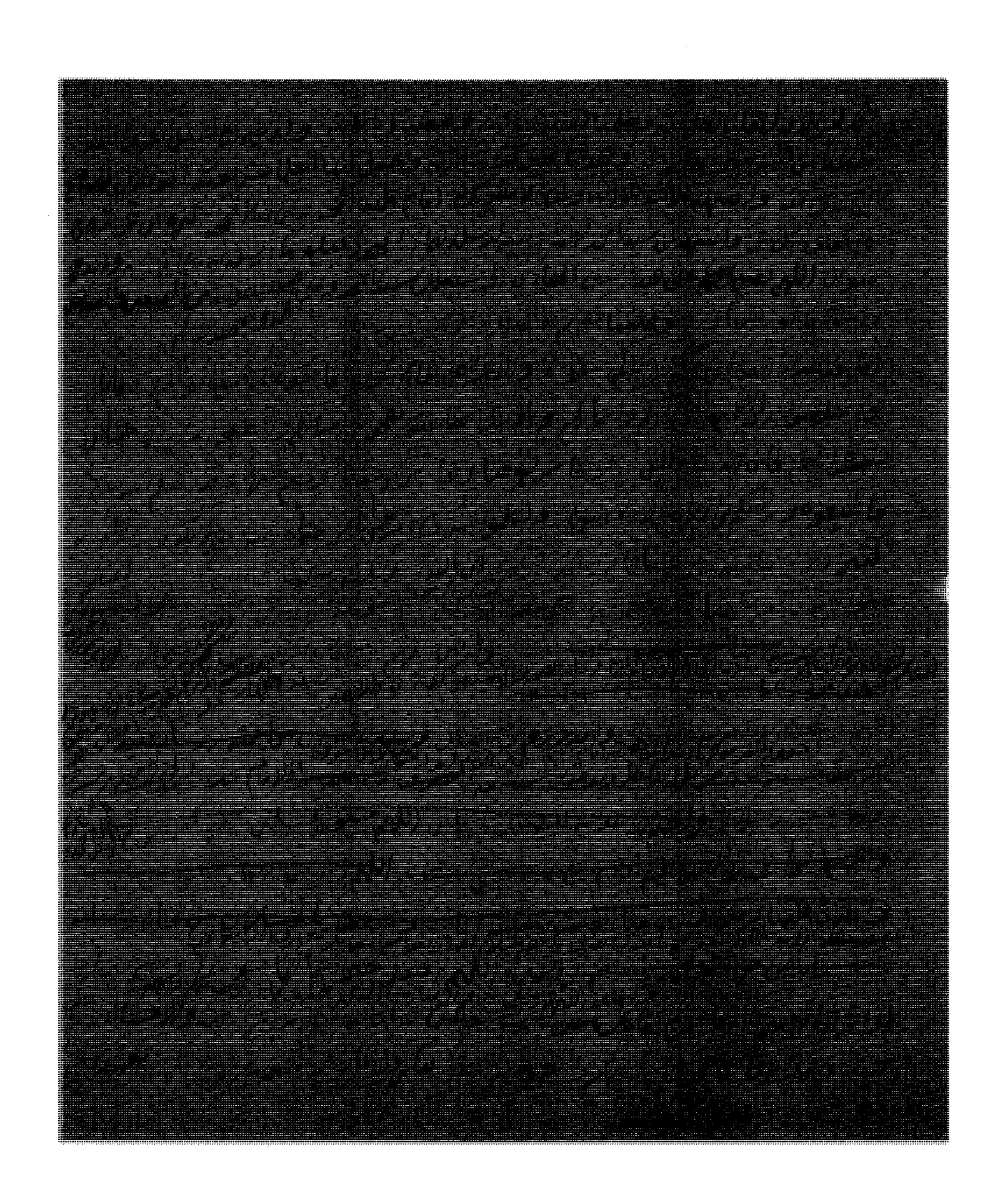
نموذج من الخطب



نموذج من الخطب



نموذج من الخطب



نموذج من الخطب

نموذج من الوصايا

